المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى
في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

قواعد تعظيم رب الأنام في سورة الأنعام

اسم الباحث

د/ عصام الدين أحمد محمد بابكر

د. عصام الدّين أحمد محمّد بابكر

قواعد تعظيم ربّ الأنام في سورة الأنعام

المقدمة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾[الأنعام]، والصَّلاة والسَّلام الأتمان الأكملان علىٰ الحبيب المصطفىٰ، والنَّبيِّ المجتبىٰ، محمَّدٍ خير الورىٰ، وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا،،

وبعد؛ فإنَّ استنباط مباحث عَقَديَّة من القرآن الكريم من المسائل المحببة إلىٰ نفسي، وقد وجدَتْ فكرةُ عقد مؤتمر عن التعظيم ارتياحًا كبيرًا عندي فعزمت علىٰ المشاركة، واخترت الكتابة عن سورة الأنعام، لكن بصورة غير الصور المألوفة المعتادة، وإنما عمدت لمحاولة استنباط قواعد جامعة لمسائل تعظيم الله من السورة، فقرأت السورة عدة مرات واستخرجت الآيات وبوبتها حسب ما بدا لي من تقسيم البحث، ثم قمت بترتيبها حسب المباحث والمطالب، وكنت اخترت عنوانًا للبحث: قواعد تعظيم الله في القرآن الكريم [سورة الأنعام أنموذجا]، فرأيت العنوان طويلًا فهممت باختصاره فهداني المولىٰ سبحانه و-عزَّ وجلَّ- إلىٰ العنوان التالي:

قواعد تعظيم ربِّ الأنام في سورة الأنعام

وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في اختيار العنوان، وما كتبته عنه.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في كونه ينبه لمسألة ذات صفة عقدية قلَّ من نجده التفت إليها منبهًا أو مقعدًا أو مؤصلًا، فقد اعتنىٰ كثير من الباحثين بالتفسير الموضوعي واعتنىٰ آخرون بمناهج الدعوة إلىٰ الله في القرآن الكريم، وغير ذلك من البحوث، ولكنني لم أقف علىٰ بحث اعتنىٰ بالقواعد الدالة علىٰ تعظيم الله في القرآن الكريم؛ ولذلك شعرت بأهمية تناول هذا الموضوع منبهًا عليه، واقفًا علىٰ دلالاته العقدية والإيمانية.

أهداف البحث:

١- استنباط قواعد تعظيم الله من السور المكية التي اتسمت بالجمل القصيرة والمعاني العميقة.

٢- تسليط الضوء علىٰ قضية مهمة من قضايا القرآن الكريم وهي الهدايات الإيمانية المترتبة علىٰ تعظيم الباري سبحانه.

٣- ربط الحاضر بالماضي بالإشارة إلىٰ الأسباب التي تحول دون تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- في العصر الحديث، بعد ذكر الأسباب التي منعت الأقدمين ممن خالفوا الرسل وعاندوهم وكذبوا بالوحي ولم يتبعوه.

منهج البحث:

سأنتهج في هذا البحث المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي، وذلك بالرجوع لأهم المصادر والمراجع في العقائد والتفسير، لاستنباط القواعد الجامعة، وسأجتهد بقدر الإمكان طلبًا للاختصار من دون إخلال.

وسأقسم البحث إلىٰ مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، وسأزيله بفهرس للمراجع، وستركز المباحث علىٰ بيان القواعد الدالة علىٰ مصادر تعظيم الله -عزَّ وجلَّ-، وتلك الدالة علىٰ منهج القرآن الكريم في الحث علىٰ تعظيم الله تعالىٰ وشرائعه وشعائره، والأسباب المانعة من تعظيم الله وعاقبة المعظمين وأعدائهم، وسنجد في ثنايا كل مبحث عددًا من المطالب التي هي في الأصل قواعد، وربما أستنبط قواعد إضافية داخل المطلب لمزيد من الاستيعاب للآيات الدالة علىٰ موضوع البحث.

ولأن المادة المتاحة للبحث وافرة في كتب التفسير والعقيدة والسيرة؛ فإنني وجدت نفسي مضطرًا للاختصار، بل حذفت بعض الفقرات والقواعد، وقبل ذلك حذفت المبحث التمهيدي الذي يحتوي علىٰ تعريفات مهمة عن مصطلحات البحث، والتعريف بسورة الأنعام، حذرًا من تجاوز العدد المحدد من الصفحات، فأرجو ألا يكون الاختصار مخلًا.

ما يضيفه البحث للفكر الإنساني:

هذا البحث محاولة لاستنباط قيم ومعاني تعمق الإيمان في النفوس، ويكون ذلك بتوظيف ملكة تدبر القرآن؛ ولذلك سيأتي جامعًا للتقعيد العلمي والتطبيق العملي لمعرفة مقاصد القرآن الكريم، ومنهجه في ترسيخ الإيمان وعلاج المشكلات التي تضعف الإيمان أو تزيله بالكلية.

المبحث الأول: مصادر تعظيم المولى -عزَّ وجلَّ- في سورة الأنعام

المطلب الأول: أنزلت الكتب بالحق الذي يهدي التي هي أقوم، ومنكر الوحي معرض عن التعظيم

جاءت هدايات القرآن تعظ بني آدم وتنبههم للحقيقة المهمة والغاية العظيمة، وهي توقير المولىٰ -عزَّ وجلَّ- وتعظيمه، قال جلَّ ثناؤه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[الأنعام]، أي: أنزل الله إليكم ما تبصرون به الهدىٰ من الضلال، والإيمان من الكفر.

والبصائر جمعٌ مفرده (بصيرة)، والمعنىٰ المقصود هو: الحُجَّة البيِّنة الظاهرة[1]. (فمن تبيَّن حجج الله وعرَفها وأقرَّ بها، وآمن بما دلّته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله وما جاء به، فإنما أصاب حظ نفسه ولنفسه عمل، وإياها بَغَىٰ الخير ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، يقول: ومن لم يستدلّ بها، ولم يصدق بما دلَّته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمي عن دلالتها التي تدل عليها، يقول: فنفسَه ضرَّ، وإليها أساء لا إلىٰ غيرها)[2]، ولذلك قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام: ١٥٣]، فالحق بيِّن واضح والمسلم مأمور باتباعه وتجنب السبل والهوىٰ المردي، قال مقاتل بن سليمان في تفسيره: «هذه الآيات المحكمات لَمْ ينسخهن شيء من جميع الكتب وهن محكمات عَلَىٰ بني آدم كلهم)[3]، والصراط المستقيم هو الإسلام الذي هو (أصل الدِّين، ووحدانية الله، وإخلاص الأنفس له علىٰ غير إشراك في عبادته وألوهيته... [وهو الذي] أمر -عزَّ وجلَّ- باتباعه ونهىٰ عن اتباع السبل؛ لأن غيره من الأديان المختلفة والأهواء المتشتتة لا حجة عليها ولا برهان، وما ذكر من الصراط المستقيم هو دين بحجة وبرهان، لا كغيره من الأديان)[4]، فالدِّين الذي أَمَرَ بسلوكه واتِّباعه واحدٌ؛ وهو كالماء الذي أنزل من السماء واحد

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٤).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٢٥)، وتفسير البغوي (٢/ ١٤٩).

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥٩٧).

(٤) تفسير الماتريدي (٤/ ٣١٨).

صاف[١]، وقد ذكر العلماء أن السبل تشمل كل الأديان والأهواء المخالفة للإسلام مثل: «اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد»[٢]. ولذلك؛ جاء المنع من اتباع السبل التي تخرج بالمرء من جادة الاستقامة والتوقير، وهذا الدين الذي جاءت به الأنبياء فيه الحجة الكاملة والبرهان المبين.

ومع وضوح الحق وتواتر دعوات الرسل وظهور البينات والآيات الواضحات؛ فإن البشر ما زالوا يكذبون ويعاندون!! ونرىٰ كثيرًا منهم عن توقير ربهم وتعظيمه ناكصين، قال المولىٰ -عزَّ وجلَّ- عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام]، فكما أنَّ أهل الكتب كذَّبوا وعاندوا ولم يقدُروا الله حقَّ قدره، فما عبدوه ولا عظَّموه؛ كذلك نجد نفس التَّكذيب والعناد في زماننا هذا، بل منذ أن بُعث نبيُّنا محمّدٌ ﷺ مبشرًا ونذيرًا، رغم قوة بيان القرآن الكريم الذي أنزله الله كتابًا هاديًا خاتمًا للكتب السابقة، مصدِّقًا لها ومهيمنًا عليها.

وسبب التكذيب والعناد عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وأنه من عند الله -عزَّ وجلَّ-، فقد ذكر الفخر الرَّازي: أنَّ الله -تعالىٰ- لمّا حكىٰ عن أهل الكتاب: أنَّهم ما قدروا الله حقَّ قدره، وما عظَّموه حقّ تعظيمه؛ بيَّن السَّبب فيه، وهو إنكارهم وتكذيبهم لكلام الله المنزل[٣]، وقد قال الحقَّ سبحانه عمَّن هذا حاله ممَّن عاصر النَّبيَّ ﷺ، وشهد التَّنزيل ولكن لم يؤمن ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]، يعاندون ويفترون الكذب بزعم أنّ القرآن أساطير.

---

(١) المرجع السابق (٦/ ٣٢٩).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٣٨).
(٣) تفسير الرازي (١٣/ ٥٨).

ولذلك جاء الوعيد الشَّديد من الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام]، حيث بيَّن -سبحانه- أن لا أحد أظلم ممَّن كذب عليه، وادَّعىٰ إنزال وحي مثل وحي كلام الله[1]، ويشتد النَّكير والوعيد علىٰ من كذَّب بالوحي، وسعىٰ لإضلال غيره، ولم يكتفِ بضلاله هو: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾[الأنعام].

ويعتبر تدبُّرُ القرآنِ وتحديقُ النَّظرِ في سُوَرِهِ وآياتِه من وسائلِ تعظيمِ الله تعالىٰ، فالقرآنُ كلُّه ينطقُ بالتعظيمِ والتمجيدِ والإجلالِ لربِّ العالمينَ حتىٰ قال أحدُ الباحثينَ الغربيينَ: «ليس هناك كتابٌ حَوَىٰ من التعظيمِ والثناءِ والحمدِ والتقديسِ للهِ تعالىٰ مثل ما حواه القرآنُ، وهذا يثبتُ أنه من عندِ اللهِ تعالىٰ؛ لأنه لو كان من افتراءِ محمدٍ لجعلَ محمدٌ لنفسه شيئًا من هذا التعظيمِ الإلهيِّ وهو ما لا نَجِدُه أبدًا في القرآنِ»[2].

فانظرْ كيف يحمدُ اللهُ تعالىٰ نفسه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾[الفاتحة]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾[الأنعام]، وانظر كيف أثبتَ لنفسِه كمالَ العلم: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾[الأنعام]، وانظر كيف أثبتَ لنفسِه القدرةَ التامَّةَ والقهرَ التامَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾[الأنعام]، ومع ذلك فهو يثبتُ لنفسِه الرحمةَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤]، وهكذا لا نجدُ آيةً من القرآنِ إلَّا وهيَ تدلُّ علىٰ عظمةِ اللهِ -تعالىٰ- بلفظِها ومعناها. ولذلك؛ فقد وصفَ اللهُ تعالىٰ هذا الكتابَ بالعظمةِ فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحِجر]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر: ٢١]، فإذا كان هذا حالُ الجبلِ الصخرِ الأصمِّ إذا أُنزلَ عليه القرآنُ فكيف بحالِ الإنسانِ الضعيفِ؟!

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم تفسير (٣/ ٢٧٠).

(٢) تعظيم الله جل جلاله «تأملات وقصائد» لأحمد بن عثمان المزيد (٨١-٨٢).

المطلب الثاني: جاءت الرسل بالدين القيم، ومعجزات الأنبياء الباهرة تقود للتعظيم لأنها تدل على الخالق سبحانه

قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

فالأنبياء والمرسلون قدوات ينبغي اتباعهم، وقد أجمعت كلماتهم علىٰ تعظيم الخالق كونهم دعوا لتوحيد الله وحده، ونبذ ما يُعبد من دونه، كما احتوت دعوة نبيِّنا محمَّد ﷺ علىٰ كلِّ أسباب ومعاني التَّعظيم، وهو نفسه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُمِر بالاقتداء بمن سبقه، حيثُ خاطبه ربُّ العِزَّة -جلَّ وعلا- بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام]، وذلك تتميمًا لرسالاتهم، وإكمالًا لما قاموا من صالح الأخلاق، حيث لم يأتِ ولم يأمر لأحد بشيء من عرض الدنيا، وإنما جاء بالدين القيم الذي فيه الهداية التامة لتعظيم المولىٰ جل ثناؤه وقد أمره أن يخاطب قومه وكلَّ أمته بذلك: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام].

وقد اشتملت دعوات الأنبياء علىٰ الحُجّة الباهرة في الدّعوة لتعظيم المولىٰ عزَّ وجلَّ، فنتأمل ذلك في حوار إمام الحنفاء مع قومه، حيث جادلهم وبادلهم الحجة بالحجة، وبيَّن لهم عظمة الباري التي لا تدانيها حجة، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ

أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

قال الفخر الرَّازي في (تفسيره): «اعلم؛ أنَّه -تعالىٰ- لمّا حكىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنَّه أظهر حُجَّة الله -تعالىٰ- في التَّوحيد، ونصرها، وذبَّ عنها، عدَّد وجوهَ نعمه وإحسانه عليه. فأوَّلها: قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والمراد: إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها وأوقفنا عقله علىٰ حقيقتها. وذكر نفسه باللفظ الدال علىٰ العظمة وهو كناية الجمع علىٰ وفق ما يقوله عظماء الملوك. فعلنا، وقلنا، وذكرنا. ولما ذكر نفسه تعالىٰ هاهنا باللفظ الدال علىٰ العظمة وجب أن تكون تلك العظمة عظمة كاملة رفيعة شريفة، وذلك يدل علىٰ أن إيتاء الله تعالىٰ إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب»[(١)]، فالمولىٰ العظيم دلنا علىٰ نفسه بالآيات الباهرة والحجج الواضحة التي أرسل بها رسله وأيدهم بها وحيًا وإلهامًا.

وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين، وسيكون العذاب مصير كل من كذَّب بهذه الآيات البينة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام]، فكيف نتوقع ممَّن كذَّب بنبيِّه ولم يتبعه أن يوحِّد ربَّه ويعظِّمه؟!

ولهذا؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]، فالقوم بدلًا من الإيمان بالله وتعظيمه؛ قست قلوبهم وما رقَّت ولا خشعت، وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الشرك والمعاندة والمعاصي[(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٣/ ٥١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٩).

يعاند الكافرون ويطالبون بخوارق العادات من المعجزات والآيات زعمًا منهم أنها إذا جاءت سيؤمنون، وقد غاب عنهم أن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه ويوقروه، لا ليمتحنوه ويختبروا قدرته، فالمولىٰ العلي الكبير قادر علىٰ كل شيء، ولكنه سبحانه ومع إصرار الكافرين وشدة طلبهم بالآيات الدالة عليه؛ بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام]، فإن الله -تعالىٰ- يقول للنبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام].

فالأمر بيد الله -سبحانه- الذي يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما يعلنون، ويعلم ما يقولونه في مجالسهم الخاصة وما يقولونه للنبي ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام].

فالرسل يعلِّمون الناس ما يحملهم علىٰ توحيد ربهم وتعظيمه؛ لأنه هو وحده -سبحانه- الذي يجيب دعوة المضطر، ويكشف السُّوء: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[الأنعام: ٤١]، ولكن هؤلاء المشركين إذا أُظهِرت لهم الآيات والمعجزات فإنهم سيقولون: إنّها سحر، وينكرون دلالة المعجزة علىٰ صدق النُّبوّة، فكان التقدير: إنّهم لا يكذِّبونك علىٰ التَّعيين، بل القوم يُكَذِّبون جميع الأنبياء والرُّسل[1] عنادًا واستكبارًا.

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٥١٩).

المبحث الثاني: القواعد الدالة على تعظيم الله في سورة الأنعام

المطلب الأول: من حسن التوحيد أنه تعظيم لله وتنزيه له عن المسبة ومن قبح الشرك أنه تنقيص ومسبة لله تعالى

قال الله -تعالىٰ- آمرًا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، أي: مستقيمًا.

وقد وصف الله -عزَّ وجلَّ- خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالحنيفية ضمن عدة أوصاف مدحه بها، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]، من جهة أنَّ وصفه «بهذه الصفات الجليلة التي هي أعلىٰ درجات تحقيق التوحيد؛ ترغيبًا في اتباعه في التوحيد، وتحقيق العبودية»[(١)]، والحنيف هو: «المائل عن الشرك قصدًا، أي: تاركًا له عن بصيرة ومقبل علىٰ الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده عنه رادّ»[(٢)].

لذلك؛ وجب علىٰ الإنسان المؤمن الموحِّد من أعمال القلب ومن أعمال الجوارح ما يحقِّق به توحيد الله -عزَّ وجلَّ-، وما يحقِّق به حقيقة العبودية في نفسه، فيحقِّق في نفسه تعظيم الرَّبِّ -جلَّ وعلا- ومحبته، ورجاءه والخوف منه، والرِّضا به والتسليم له، والطاعة له والانقياد عملًا بالقلب والجوارح معًا[(٣)]، والأمر بالتوحيد كثير في القرآن لأنه أول الدين وآخره وباطن الدين وظاهره، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للخليلين محمد وإبراهيم صلىٰ الله عليهما وسلم تسليمًا[(٤)]، فقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنَّه قال: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَىٰ اللهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال المولىٰ -جلَّ ثناؤه- في مفتتح (سورة الأنعام): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾، ونجد في الآية تعظيم الله

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٧٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٣).

(٣) الموسوعة العقدية الدرر السنية (١/ ٢٤٣).

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٤٩)، والمطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد (١١٧).

ونفي النّقص عنه، حيث يحمد الرَّبُّ -جلَّ وعلا- نفسه، ويعرفنا بجليل صفاته الدَّالّة علىٰ وجوده وربوبيته كالخلق والتدبير، وينزِّه نفسه عن النَّقص الذي يعتقده فيه الكفرة والمشركون، فنقرأ فيها ردًّا علىٰ ثلاثة أديان يعتقد أهلها الباطل في الله -عزَّ وجلَّ-، كالملاحدة الدهريين[١] الذين أنكروا وجوده سبحانه؛ والثنويين[٢] المجوس[٣] الذين زعموا وجود خالقين: إله النور الذي يخلق الخير، وإله الشر الذي يخلق الظلمة، والمشركين الذين عظموا آلهتهم ووصفوا الباري -سبحانه- بالنقص، فعن مجاهد، قال: «في هذه الآية ردٌّ علىٰ ثلاثة أديان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيه ردٌّ علىٰ الدَّهرية، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ ردٌّ علىٰ المجوس الذين زعموا أنَّ الظُّلمة والنُّور هما المُدبِّران، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه ردٌّ علىٰ مشركي العرب ومن دعا من دون الله إلهًا»[٤].

فالكفَّار والمشركون بسبب عدم تعظيمهم لله -عزَّ وجلَّ- انتقصوا قدره، فجعلوا له عدلًا في العبادة والمحبّة والتعظيم، وهذه هي التّسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنّها كانت ضلالًا وباطلًا، وعندئذ سيقولون لآلهتهم وهي في النَّار معهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء]، ومعلوم أنّهم ما ساووهم به في الذَّات ولا في الصِّفات والأفعال، ولا قالوا: إنَّ آلهتهم خلقتِ الأرضَ والسَّموات، أو إنّها تحيي وتميت أو تدبر. وإنَّما ساووهم به في محبَّتهم لها وتعظيمهم لها،

---

(١) الدّهريون: هم الذين أنكروا وجود الله، وزعموا أن الأشياء كانتْ بلا مكوِّن. (معجم البدع: ٤٤٥).

(٢) الثنوية: هم القائلون بأصلين للعالم أزليين قديمين هما (النور والظلمة)، وهما متساويان في القدم، وإن كانا مختلفين في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح، وغير ذلك، وعنهما كان كل الموجودات، فهم بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلمة. وهم فرق: كالمانوية، والديصانية، والمرقونية، والمزدكية. انظر: الملل والنحل (٢/ ٤٩-٥٠)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي (٨٨-٨٩).

(٣) المجوس: هم عبدة النار، أو من يمارسون العبادة في وجود النار، ويقولون: إنّ للعالم أصلين مدبِّرين، هما: النور والظلمة. ويزعمون أنَّ الخير مِن فعل النُّور، والشَّرّ من فعل الظلمة، وقد نشأت هذه النحلة في بلاد فارس. والمجوسية دينٌ قديمٌ يقال له كذبًا: الدين الأكبر، والملة العظمىٰ. وهي فرق ذكرها أصحاب المقالات. انظر: الملل والنحل (٢/ ٣٨)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٨٦-٨٧).

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل (١١٧).

وعبادتهم إيَّاها بدعائها، والدُّعاء حولها لتكون سببًا وواسطة في حصول المطلوب، والتَّقريب إلىٰ المحبوب[١].

وذلك؛ لأنَّ «الحب أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله. وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهة تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتىٰ عارضت أصل الحب والتصديق كانت شركًا أو كفرًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب»[٢]، فمن صرف المحبة التي ينبغي أن تكون لله فقد وقع في الشرك الأكبر، وهو بذلك ينتقص من قدر الربوبية والألوهية في نفسه لدرجة أن يساوي غير الله بالله، ولذلك قال الله عمّن هذا حاله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وسئل النَّبيُّ ﷺ عن أيّ الذَّنب أعظم؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[٣].

ولذلك؛ نجد في آيات كثيرة تنزيه الله -عزَّ وجلَّ- لنفسه عن النقائص، وبيان وجه خطأ المعاندين الذين وصفوا الله بالأقل، وعظَّموا آلهتهم، ووصفوها بما يجب أن يوصف به الله وحده، وقد عاب المولىٰ -سبحانه- علىٰ المشركين تنقصيهم له -عزَّ وجلَّ- بنسبة البنين والبنات: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

فهو -سبحانه- منزَّه مقدَّس عن كلِّ نقيصة يصفه بها المشركون، فهو البديع المبدئ المعيد الذي لا يعينه أحدٌ ولا يعيقه أحدٌ، ولذلك بيَّن الرُّسل أنَّ من تمام التَّوحيد إثبات كمال التعظيم له سبحانه: روىٰ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَقَالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

---

(١) التوضيح عن توحيد الخلاق (١٨٤).

(٢) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٠٦٧).

(٣) صحيح البخاري (٧٥٢٠)، وصحيح مسلم (٨٦).

فهو سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]، يغفر ذنبًا، ويفرج همًا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلِّم جاهلًا، ويهدي ضالًا، ويرشد حيران، ويغيث لهفانا، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلىٰ، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا ويقصم جبارًا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمِّن روعة، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، ويمينه ملأىٰ لا تغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار. قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزِمَّة الأمور معقودة بقضائه وقدره.

الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسَّموات مطويات بيمينه، يقبض سماواته كلَّها بيده الكريمة، والأرض باليد الأخرىٰ، ثمّ يهزُّهنّ، ثم يقول: «**أنا الملك أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها**»، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها، لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وأوَّل خلقه وآخرهم وإنسهم وجِنّهم، كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منهم= ما زاد ذلك في ملكه شيئًا. ولو أنَّ أوَّل خلقه وآخرهم وإنسهم وجِنَّهم، كانوا علىٰ أفجر قلب رجل منهم= ما نقص ذلك من ملكه شيئًا. ولو أنَّ أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجِنَّهم وحيِّهم وميِّتهم ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحدٍ، فسألوه، فأعطىٰ كلًّا منهم ما سأله= ما نقص ذلك ممَّا عنده مثقال ذرَّة[1].

إذا تدبَّرنا الكلام أعلاه؛ فإنّنا سنخلص إلىٰ أنَّ الآلهة المُعظَّمة غير الله -سبحانه- ليست جديرة بالتَّعظيم، لأنّها لا تملك ولا تعطي عطاء الغني الحميد، كما سنخلص إلىٰ أنَّ «اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقُّص للعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح]، فإنّهم ظنوا به ظن السوء حتىٰ أشركوا به، ولو أحسنوا به الظنّ لوحَّدوه حقّ توحيده، ولهذا أخبر -سبحانه وتعالىٰ- عن المشركين أنّهم ما قدروه حقَّ قدره، وكيف يقدره حقّ قدره من اتَّخذ من دونه نِدًّا، أو شفيعًا يحبُّه ويخافه ويرجوه، ويذلُّ له، ويخضع له، ويهرب من سخطه

(١) الوابل الصيب (٦٢-٦٣)، من السياق يتضح لنا أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ اقتبس كلامه عن تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- من نصوص الكتاب والسنة.

ويؤثر مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر؟ وإنَّما كان ذلك هضمًا لحقِّ الرُّبوبية، وتنقصًا لعظمة الإلهية، وسوء ظنٍّ بربِّ العالمين»[١]، وأنَّه بتوحيدنا لله -سبحانه- سنتعلم كيف نعبد ربَّنا حقّ العبادة، ونُجِلُّه ونعظِّمه ونقدِّسه.

المطلب الثاني: الباري سبحانه تعرَّف إلينا بصفاته وآلائه ودعانا لتوقيره وتعظيمه

وقد تعرَّف سبحانه وتعالىٰ إلىٰ عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرِّف به وتدل علىٰ كماله، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل علىٰ إثبات الصفات له علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنْزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفىٰ أثرهم علىٰ الإسلام والإيمان[٢]. بناء علىٰ ما ذكرنا يمكننا تفريع عدة قواعد توضح قاعدة هذا المطلب:

قاعدة: معرفة صفات الباري وأفعاله، ومعرفة الغاية من الخلق تغرس في نفس المؤمن غاية التعظيم

منَّ علينا هذا الرَّبُّ الذي تعرَّف إلينا بالإشارة إلىٰ نفسه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

قال القشيريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تعرّف إليهم بآياته، ثم تعرّف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته»[٣].

وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في معنىٰ الآية: «فاعبدوه وحده، لا شريك له، وأقرُّوا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له، ولا والد ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عديل وهو علىٰ كل شيء وكيل أي حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار»[٤].

وهو سبحانه: «يدرك الأبصار، وهو أعظم من أن تدركه الأبصار»[٥]، وتأكيدًا «لذلك؛ قال ابن عبَّاس لمن سأله عن الرُّؤية، وأورد عليه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ فقال: ألستَ

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٢٨).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٦٤٠-٦٤١).
(٣) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٤٩٣).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧).
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٨).

ترىٰ السَّماء؟ قال: بلىٰ، قال: أفتدركها؟ قال: لا، قال: فالله -تعالىٰ- أعظم وأجل»[(١)]؛ لأن المولىٰ سبحانه هو الكبير المتعال.

ومع ذلك؛ فهو محيطٌ بكلِّ شيء علمًا، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ٣]، وقال عزَّ من قائل: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، فالله سبحانه: «عنده علم ما غاب علمه عن خلقه، فلم يطَّلعوا عليه ولم يدركوه، ولن يعلموه، ولن يدركوه»[(٢)].

فإذا عرفنا ربَّنا بصفاته الجليلة، وعرفناه -سبحانه- بأنَّه المستحقّ للعبادة وحده، وعرفنا أنَّ الخلق لا يحيطون به علمًا، وهو مع ذلك محيط بكلِّ شيء علمًا، يعلم ما دقَّ وخفي؛ لأنَّه لطيف خبير؛ ألا تحملنا هذه المعارف إلىٰ تعظيمه والمسارعة إليه والرَّغبة إليه والرَّهبة ممَّا عنده؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام].

قاعدة: غاية الآيات الدالة على القدرة أن تهدي الخلق لتعظيم خالقهم

استدلَّ كثير من النُّظَّار بالآيات الدالة علىٰ القدرة علىٰ إثبات وجود الله -عزَّ وجلَّ-، ويتجلَّىٰ الاستدلال بالقدرة بصورة أكبر في قوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام]، ففي الآيات يخبر سبحانه «أنه يشق النواة مع شدتها وصلابتها، ويخرج منها نبتًا أخضر لينًا، ما لو اجتمع كل الخلائق علىٰ إنفاذه وإخراج مثله من غير أذىٰ يصيب ذلك النبت ما قدروا عليه، يخبر عن لطفه وقدرته»[(٣)].

ويمضي بنا السياق القرآني في بيان القدرة الدالة علىٰ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]، وهنا تتجلّىٰ قدرته وعزته

---

(١) تفسير المنار (٩/ ١٤٩).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٤٠٢).

(٣) تفسير الماتريدي (٤/ ١٨٠).

وسعة علمه سبحانه، حيث يخبرنا أنَّ الشَّمس والقمر «يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس]، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، كما يبيِّن لنا أنَّ (الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانَع ولا يخالَف، العليم بكل شيء، فلا يعزُب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيرًا ما إذا ذكر الله تعالىٰ خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم»[(١)].

كما يرُدُّ في آيات أخرىٰ الإنسان إلىٰ عقله بتساؤل يقوده إلىٰ إدراك القدرة العظيمة التي لا تدانيها قدرة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام]، وهذه الآيات التي ترد المؤمن إلىٰ عقله تدعوه وتقوده ليدرك عظمة باريه عن طريق التذكير بالملك التَّامّ لله -سبحانه- تارة، وبأنه بيده النَّفع والضُّرَّ تارة، وبالتذكير بعلو قهره بعد ما نما في نفس الإنسان الإحساس بعلو ذاته، والإيمان بعلو قدره تارة أخرىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

ويعدِّد الله -سبحانه- من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنىٰ شيء منه آلهة المشركين التي يعظِّمونها غير الله[(٢)] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٤٤).

فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام].

وهكذا تمضي الآيات في بيان باهر قدرة الله -عزَّ وجلَّ- لتنقل العقل البشري من الإيمان بباهر القدرة الظاهرة في الكون المنظور إلىٰ الإيمان بعظمة المولىٰ -سبحانه- وقدرته علىٰ البعث والإعادة بعد الموت، استعدادًا للحساب والجزاء، فالذي قدر علىٰ الخلق الأول وهو قادر علىٰ إفنائه؛ سيقدر لا محالة علىٰ إعادته مرة أخرىٰ، ومن ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٣]، أي: إظهارًا للحقِّ؛ لأنَّه جعل صنعه دليلًا علىٰ وحدانيته[1].

إلىٰ أن تصل بنا الآيات لتنبيه الغافلين تخوفهم بالقدرة علىٰ تغيير ما هم فيه من نعيم وأمن، فالمولىٰ -سبحانه- قادر علىٰ أن يبعث عليهم عذابًا يردعهم إن هم تمادوا ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

فبعد أن ذكر -سبحانه- قدرته بالإنعام علىٰ خلقه بالإنجاء ممَّا يخافون منه في ظلمات البَرِّ والبحر؛ ذكَّرهم محذِّرًا من مغبة الغفلة: فهو الْقادِرُ هو الذي عرفتموه قادرًا وهو الكامل القدرة أن يرسل عليكم ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، كما أمطر علىٰ قوم لوط وعلىٰ أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل علىٰ قوم نوح الطوفان ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: من قبل أكابركم وسلاطينكم، و﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: من قبل سفلتكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أو يخلطكم فرقًا مختلفين علىٰ أهواء شتىٰ، كل فرقة منكم مشايعة لإمام[2].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ١٣٤).

(٢) تفسير الزمخشري (٢/ ٣٣).

وقد استعاذ النبي ﷺ بالله من هذا الوعيد، فقد روىٰ جابر بن عبد الله: أنه لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَاتَانِ أَهْوَنُ»، أَوْ «هَاتَانِ أَيْسَرُ»[(١)]، ويؤكِّد الفخر الرَّازيُّ ما ذكرته آنفًا حيثُ يقول: «اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد وهو ممزوج بنوع من التخويف، فبيَّن كونه تعالىٰ قادرًا علىٰ إيصال العذاب إليهم من هذه الطرق المختلفة. وبالجملة فهذه الآية تتناول جميع أنواع العذاب التي يمكن نزولها من فوق، وظهورها من أسفل»[(٢)].

المطلب الثالث: تعظيم الله عبادة ينبغي أن يداوم الإنسان عليها.

أحبُّ الأعمال إلىٰ الله أدومها، هذا ما دلّت عليه نصوص الشريعة أمرًا للمؤمنين، ومدحًا للمديمين للطاعة، وقد صاغ الإمام الشَّاطبيُّ هذه الحقيقة قاعدة فقهية بيَّن فيها أنَّ المداومة علىٰ الطاعة مقصودة للشَّارع الحكيم، فقال: «من مقصود الشارع في الأعمال دوام المكلف عليها»[(٣)]، لأن مداومة العبد علىٰ الطاعة دليلٌ علىٰ محبته وتعظيمه لمن شرعها، ولذلك قال المولىٰ جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧٢]، وإقام الصَّلاة بمعنىٰ الدَّوام عليها، بهذا فُسِّرت الإقامة حيثُ ذُكِرت مضافةً إلىٰ الصَّلاة، وجاء هذا كلّه في معرض المدح، وهو دليلٌ علىٰ قصد الشَّارع إليه، وجاء الأمر به صريحًا في مواضع كثيرة[(٤)]، كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وفي الحديث: «اعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَىٰ اللهِ -عزَّ وجلَّ- أَدْوَمُهُ، وَإِنْ قَلَّ»[(٥)]، وقال: «اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»[(٦)].

وكان من شأن النَّبيِّ ﷺ في تعظيم ربِّه أنَّه إذا عمل عملًا داوم عليه[(٧)]، إخلاصًا وإخباتًا لربِّه -جلَّ وعلا-، وقد أخبرنا بذلك ربُّ العِزَّة -تبارك وتعالىٰ- حيثُ قال له: ﴿قُلْ إِنَّنِى

(١) سنن الترمذي (٣٠٦٥)، قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».
(٢) تفسير الرَّازي (١٣/ ٢٠).
(٣) الموافقات (٢/ ٥٧٢).
(٤) الموافقات (٢/ ٤٠٤).
(٥) مسند أحمد (٢٤٩٤١).
(٦) السنن الكبرىٰ للنسائي (١/ ٤١٢).
(٧) قالت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصف عبادة النبي ﷺ: «وَكَانَ إِذَا صَلَّىٰ صَلَاةً أَثْبَتَهَا». الزُّهد والرَّقائق لعبد الله بن المبارك (١/ ٣٩٤).

هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام]، والمعنىٰ: «حياتي لله في طاعته، ومماتي لله في رجوعي إلىٰ جزائه. ومقصود الآية: أنْ أخْبِرهم أنَّ أفعالي وأحوالي لله وحده، لا لغيره كما تشركون أنتم به»[(١)].

وقد امتثل النَّبيُّ ﷺ الأمرَ تعظيمًا لله، فقد روىٰ عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا استفتح الصَّلاة يكبِّر، ثمّ يقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، اصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[(٢)]، كان ذلك شأنُه في الصَّلاة وكلّ العبادات اصطبارًا عليها، وتقرُّبًا للكبير المتعال بها.

المطلب الرابع: شعائر الله لا يجوز التهاون بها[(٣)]

المؤمن مأمورٌ بطاعة ربِّه، وتعظيمه، والالتزام بشرعه، ومن كمال التَّعظيم: التَّأدّب مع الذّات العليّة، وتجنب شرك الألفاظ، ويترك الموحِّد التَّنديد مثلما يجتنب الأنداد، كما يجب علىٰ المؤمن ألا يفتح بابًا للعصاة للتَّنقيص من الذَّات الإلهية، بل يجب عليه اجتناب المجالس التي لا يُعَظَّم فيها الله -عزَّ وجلَّ-، قال الله تعالىٰ مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، والمعنىٰ: يقول -تعالىٰ ذكره- لنبيِّه محمد ﷺ: وإذا رأيتَ -يا محمَّد- المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، وسبَّهم من أنزلها وتكلَّم بها؛ فصُدَّ عنهم بوجهك وقم عنهم، ولا تجلس معهم، حتىٰ يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله[(٤)].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٩٨).
(٢) مسند أحمد (٨٠٣).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٤١٧).
(٤) تفسير الطبري (١١/ ٤٣٦).

ثمَّ بيَّن المولىٰ -سبحانه- في (سورة النِّساء) -وهي مدنية- عقوبة من فعل ذلك، وخالف ما أمر الله به، فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾[النساء]، فألحق من جالسهم بهم.

وقد ذهب إلىٰ هذا جماعةٌ من أئمة هذه الأُمَّة، وحكم بموجب هذه الآيات في مجالسة أهل البدع علىٰ المعاشرة والمخالطة[١]، لأنَّكم «إذا جلستم معهم، وأقررتموهم علىٰ ذلك، فقد ساويتموهم فيما هم فيه»[٢]، «والخوض أصله في الماء، ثم استعمل بعد في غمرات[٣] الأشياء التي هي مجاهل، تشبيهًا بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول»[٤].

فالنَّهيُّ عن الجلوس مع الخائضين المستهزئين بالله وآياته؛ نهيٌ للنَّبيِّ ﷺ ولأتباعه من بعده، لأنَّ شعائر الله لا يجوز التّهاون بها، بل يجب تعظيمها واحترامها، ويقتضي ذلك عدم السَّماح لمن يخوض في التنقيص ولا التهاون معه أو مجاملته، ويدخل ضمن ذلك تجنب المِراء المفضي للاستهزاء، وحَذَرُ الخصومات في الدِّين من باب الأولىٰ.

ويتبع النَّهيَ عن مجاملة الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والتنقيص ومراعاة الأولىٰ= عدم فتح الباب لهم ليسبّوا الله، ويسبُّوا مظاهر الشَّريعة، فقد نهانا الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[الأنعام]، ويأتي هذا النَّهي في باب إعمال المصالح لجلبها وتكثيرها، والمفاسد لدرئها وتقليلها، فإنَّ سبّ الآلهة التي تعبد دون الله وتنقيصها طاعة وقربة، ولكن إذا أفضت لمفسدة فيجب اجتنابها، فقد «نهانا الله -عزَّ وجلَّ- عن سبِّ من يستحق السبَّ؛ مخافة سبِّ من لا يستحق السبَّ»[٥]، قال قتادة: «كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فنهاهم الله -عزَّ وجلَّ- عن ذلك، لئلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة»[٦]، وظاهر الآية وإن كان نهيًا عن سبِّ الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالىٰ، لأنه سبب لذلك.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٩).
(٣) غمرات الشيء: شدته وأهواله، يقال: انجلت عنه غمرات الحرب، أي: أهوالها. انظر: غريب الحديث لإبراهيم الحربي (٣/ ١٠٧٢).
(٤) تفسير القرطبي (٧/ ١٢).
(٥) تفسير الماتريدي (٤/ ٢٠٧).
(٦) تفسير البغوي (٢/ ١٥٠).

فالمؤمنون وخاصة الدعاة وطلاب العلم يجب عليهم استصحاب فقه الموازنات والنظر إلىٰ المآلات في تصرفاتهم ومعاملاتهم؛ لأن العمل إذا كان سيفضي إلىٰ مفسدة فاجتنابه مصلحة، فيجب عندئذٍ (دفع أعظم الفسادين باحتمال أدناهما)[١]، وهذا باب واسع ذلت فيه أقدام بعد ثبوتها، وقد يحملها التعظيم والاندفاع للمبالغة في المواقف تجاه الطرف الآخر.

ومما يجب اجتنابه تعظيمًا لشعائر الله وعدم التهاون بها مما دلتنا عليه سورة الأنعام: تشريع ما لم يشرِّعه الله، والتزام ما لا يلزم: قال الله تعالىٰ عن المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام]، والمقصود أن الناس يشرعون شرائع ويلتزمون التزامات، ليس مصدرها وحي أو تشريع إلهي، إنما هي مجرد الأهواء والظنون، فيقولون: الطعام الفلاني محظور مقدس يتناوله فلان ولا يمسه فلان، وقد يسيِّبون أنعامًا ويحرِّمون ظهورها، فلا يركبها أحد، ولا يحمل عليها حمل، فإنها خصصت لفلان، وقصد بها التقرب إليه فيجب تعظيمها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، وإنما ينوون بها التقرب إلىٰ غير الله، والذبح باسمه، ثم يعتقدون أنهم بذلك ينالون رضا الله، ويقضي الله بذلك حاجاتهم، وكله افتراء سيلقون جزاءه[٢].

كل هذه الأفعال يفعلونها متابعة لهوىٰ النفس، أو لتحقيق أغراض دنيوية نهىٰ عنها الشارع الحكيم، فخاطبهم الله مستنكرًا فعلهم بتساؤل مفحم: هل المحرم هو الذكور أم الإناث؟ ومن منكم كان شاهدًا عندما حرَّم الله -عزَّ وجلَّ- ما ادّعيتم تحريمه؟ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤]، إبطالًا لما حرمته الجاهلية منها في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[٣].

قوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، يعني قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، ثم قال تعالىٰ:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٩/ ٤٥٨).

(٢) رسالة التوحيد (١٥١).

(٣) البحيرة: الناقة المبحورة (المشقوقة الأذن). والسَّائبة: الناقة المُخلَّاة. والوصيلة: النَّاقة إذا أتأمت بطنًا بذكر وأنثىٰ. والحامي: الفحل يُحْمَىٰ ظهره من الرُّكوب والانتفاع، بسبب تتابُعِ أولادٍ تحدُث من فِحْلتِه. انظر: معاني القرآن للفراء (٣٢٢).

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ يريد به ما أراده في الضَّأن والمعز، وأنَّ هذه الثمانية أزواجٌ حلالٌ لا يحرم منها شيء بتحريمكم[(١)]، وفي سبب نزول الآيات حكىٰ أبو صالح، عن ابن عبَّاس: أنَّ هذه الآية نزلت علىٰ رسول الله ﷺ، حين أتاه عوف بن مالك فقال له: أَحَلَّلْتَ ما حرَّمه أباؤنا؟ -يعني: من البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام-. فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وقال: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فسكت عوفٌ لظهور الحُجّة عليه[(٢)].

ثم عقَّب المولىٰ سبحانه مخاطبًا نبيَّه الكريم بآيات بينات فيها توضيح ما أحلَّه الله وما حرَّمه من الطعام ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[الأنعام: ١٤٥]، فلا يسوغ لكم -أيُّها النَّاس- أن تحرِّموا أو تُحِلّوا بأهوائكم.

وبيَّن لنا القرآن الكريم أنَّ طاعة غير الله في التَّحليل والتَّحريم= شركٌ في التَّشريع يجب الحذر منه، فقد دخل أناسٌ من المشركين علىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: أخبرنا عن الشَّاة إذا ماتت، من قَتَلها؟ فقال: اللهُ قتلها. قالوا: فتزعم أنَّ ما قتلتَ أنت وأصحابُك حلالٌ، وما قتله الله حرام! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[الأنعام]، قال ابن كثير في تفسير الآية: «﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾، أي: حيثُ عَدَلْتم عن أمر الله لكم وشرعه، إلىٰ قول غيره، فقدَّمتم عليه غيره، فهذا هو الشِّرك، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣١]، وقد روىٰ التِّرمذيُّ في تفسيرها: عن عديّ بن حاتم، أنَّه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال «**بلىٰ، إنَّهم أحلُّوا لهم الحرامَ، وحرَّموا عليهم الحلالَ، فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إيَّاهم**»[(٣)].

وممَّا ينافي تعظيم شعائر الله: ارتكاب الحيل للهروب من أوامر الشَّريعة، وكان ذلك ممَّا ابتدعته اليهود، وذكره الله لنا لنجتنبه، قال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ١٨١).

(٢) تفسير الماوردي (٢/ ١٨١)، وتفسير العِزّ بن عبد السلام (١/ ٤٦٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦)، والنَّصُّ الذي في سنن (الترمذيِّ: ٣٠٩٥): قال عديٌّ وسمعتُه يقرأ -يعني: النَّبيَّ ﷺ في (سورة براءة): ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣١]، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**».

ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ [الأنعام: ١٤٦]، عن جابر بن عبد الله: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «**إن الله ورسوله حرَّما بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**»، قيل: يا رسول الله، أرأيتَ شحوم الميتة؛ فإنه يُطلىٰ بها السُّفن ويُدهن بها الجلود، ويَستصبح بها النَّاسَ؟ فقال: «**لا هو حرام**»، ثم قال رسول الله عند ذلك: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ جَمَّلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**»[(١)].

وحاصل الكلام أنَّ اليهود لمَّا حرَّمت عليهم الشُّحوم، احتالوا فتواطأوها، أي: هيئوها واتَّفقوا علىٰ إذابتها[(٢)]، وقد دلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ مجرّد تغيير الاسم لا يؤثِّر في حال الشَّيء وحرمته ما لم تتغير حقيقته[(٣)]، فليخسأ ضعفاء الإيمان الذين يحتالون للالتفاف علىٰ الشَّريعة لتحقيق أغراض ومنافع دنيوية، وهو عملٌ ينم عن ضعف إيمان، وضعف مراقبة، وضعف توقير لله -عزَّ وجلَّ-، وهو عملٌ كما أخبر النَّبيُّ ﷺ يستحقّ صاحبه بموجبه اللَّعن والطّرد من رحمة الله، فإنّهم بما اخترعوا من الحيلة انتصبوا لمحاربة الله ومقاتلته، ومن قاتله قتله[(٤)].

إنَّ المولىٰ -جل ثناؤه- عظيمُ الذَّات وعظيم القدر، فكما يجب علىٰ المؤمن أن يعظِّم ربَّه، ويمجّده في ذاته وصفاته وأفعاله؛ فكذلك يجب عليه أن يعظِّم حدودَ الله وحرماته وشرائعه وشعائره، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحج].

ومَن سَعِد بفعل ذلك؛ فهو دليلٌ علىٰ تمكن التَّقوىٰ في قلبه، وبالعكس فإنَّ الأفعال الثلاثة التي ذكرناها في هذا المطلب (الخوض في آيات الله، والاستهزاء بالله ورسوله، سبّ الله ورسوله، الاحتيال للالتفاف علىٰ الشَّرائع والأحكام) كلّها تدلّ علىٰ أنَّ هناك قومًا هان الله في نفوسهم فلم يقدُروه حقَّ قدره، ولا راقبوه في أفعالهم، فهانت عليهم شرائعه فلم يعظِّموها، وهانت عليهم حدودُه فانتهكوها، فأمسَوْا بذلك عُرضةً لأن يقابلهم الله بعدله فيكتب لهم الذُّلّ والهوان، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة]، والجزاء من جنس

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ١٦٨).

(٢) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٥/ ٢٨).

(٣) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (١٧/ ٢٧٧).

(٤) انظر: التنوير شرح الجامع الصغير (٧/ ٥٦٩).

العمل، لذلك يعظنا مولانا تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾[الأنعام].

المبحث الثالث: الأسباب المانعة من تعظيم الله في سورة الأنعام

المطلب الأول: إبليس وجنده بالمرصاد يصدون المؤمنين عن تعظيم ربهم

لا يرضىٰ المفرطون الذين لم يعظِّموا ربَّهم -لا يرضون- بتقصيرهم إلَّا أن يَغُرُّوا غيرَهم ليخوضوا معهم، لذلك نجد ديدنهم دائمًا وفي كلّ زمان ومكان؛ زخرفة القول، وإيراد الشُّبهات للصَّدِّ عن سبيل الله، وقد أخبر الحقُّ -سبحانه- عنهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالىٰ ذكره لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: وكما ابتليناك يا محمَّد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداءً شياطينَ يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرفَ القول، ليصدُّوهم بمجادلتهم إيَّاك بذلك عن اتِّباعك، والإيمان بك، وبما جئتهم به من عند ربِّك؛ كذلك ابتلينا مَن قبلك من الأنبياء والرُّسل، بأن جعلنا لهم أعداءً من قومهم يؤذُونهم بالجدال والخصومات. يقول: فهذا الذي امتحنتُك به، لم تُخَصَّص به من بينهم وحدك، بل قد عمَّمتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي علىٰ منع مَن آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك، إلَّا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم»[1].

هذه هي سُنَّة الله في خلقه: شياطين الإنس والجنِّ يُزَخْرِفُون، والمؤمنون يصبرون متمسكين بالحقِّ الذي أوحاه الله إلىٰ أنبيائه وخاصَّة أوليائه، و﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما زيَّنُوه لمن والاهم، واتَّبع سبيلَهم من الشُّبه في الكفر وارتكاب المعاصي المفضية لعدم تعظيم ربِّ البَرِيَّات، قال قتادةُ ومجاهدٌ والحسنُ: إنَّ من الإنس شياطينَ كما أنَّ من الجنِّ شياطينَ، والشَّيطان: العاتي المتمرِّد من كلِّ شيءٍ. قالوا: إنَّ الشَّيطان إذا أعياه المؤمن، وعجز عن إغوائه؛ ذهب إلىٰ متمرِّدٍ من الإنس وهو شيطانُ الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه[2].

ولذلك؛ يَحْذَر الصَّالحون من شياطين الإنس حَذَرهم من شياطين الجنِّ بل أشدَّ، قال مالك بن دينار: «إِنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَذَلِكَ أَنِّي إِذَا تعوذت بالله ذهب عني شياطين الْجِنِّ، وَشَيْطَانُ الْإِنْسِ يَجِيئُنِي فَيَجُرُّنِي إِلَىٰ الْمَعَاصِي عِيَانًا»[3].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥٠-٥١).

(٢) تفسير البغوي (٢/ ١٥٣-١٥٤).

(٣) تفسير البغوي (٢/ ١٥٣)، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٨).

ولئن كان أعداء الأنبياء علىٰ مرِّ الزَّمان يُزَخْرِفُون القولَ ليصدُّوا عن سبيل الله، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم؛ فإنَّ أعداء النَّبيِّ ﷺ من مشركي مكَّةَ ساروا علىٰ الدَّرب نفسه، ونسجوا الزَّخارف نفسَها، ووصفوا النَّبيَّ ﷺ بأوصاف تحطّ من قدره عند من يعظِّمه؛ صدًّا عن سبيل الله، فرمَوه بالكذب والسِّحر، ووصف القرآن العظيم بأوصاف لا تقال عن كلام الله سبحانه، وما ذلك إلَّا عنادًا وصَدًّا عن سبيل الله، وفوق ذلك هم يتمنون الأماني التي يطلبون فيها أن يبلِّغهم القرآنَ ملكٌ مرسلٌ من الله -عزَّ وجلَّ- !!

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾[الأنعام: ١٠]، فإنَّه -سبحانه- عاب عليهم الاعتذارَ عن الحقِّ بالسِّحر في الموضع الذي لا يمكن فيه السِّحر قطعًا في عقول العقلاء، فكيف وقد جعلوه سحرًا بيِّنًا لا سحرًا مشكوكًا فيه لشدَّة عنادهم، يدلّ علىٰ ذلك أنّهم جعلوه غاية ما اقترحوا تعجيزًا وعنادًا وعتوًّا[(١)]، والمولىٰ -سبحانه وتعالىٰ- «علم أنَّه ليس السَّبب في عدم إيمانهم التباسٌ أو غموضٌ في صدق الدَّعوة، وإنَّما السَّبب هو ما انطوت عليه نواياهم من عدم الرَّغبة في قبول الحقِّ، بحيث لو أنزل الله -تعالىٰ- عليهم أعظم الآيات لما آمنوا»[(٢)].

ومع هذا الحقِّ الأبلج، إلَّا أنَّ المعاندين الذين يصدُّون سبيلَ الله يتَّخِذُون ذرائعَ أخرىٰ للصَّدِّ، فيصفون القرآن بأنَّه أساطير الأولين، ألم يكن مناسبًا أن يفهموا فحوىٰ خطاب القرآن قبل أن يُصدروا هذه الأوصاف الجائرة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾[الأنعام: ٢٥]، أي: ما هذا الذي جئتَ به إلَّا مأخوذًا من كتب الأوائل ومنقولًا عنهم[(٣)].

وذكر أصحاب التَّفسير في سبب نزول الآية: قال الكلبيُّ: «اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنَّضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأميَّة

(١) إيثار الحق علىٰ الخلق في رد الخلافات (٦٧).
(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلىٰ الإسلام (٢/ ٦٩٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢١).

وأُبي ابنا خلف والحارث بن عامر؛ يستمعون القرآن، فقالوا للنَّضر: يا أبا قُتيلة، ما يقول محمّدٌ؟ قال: ما أدري ما يقول، إلَّا أنِّي أراه يُحَرِّك لسانَه ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أُحَدِّثكم عن القرون الماضية. وكان النَّضر كثيرَ الحديث عن القرون وأخبارها، فقال أبو سفيان: إنِّي أرىٰ بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلا، لا تَقَرَّ بشيءٍ من هذا. وفي رواية: لَلْمَوتُ أهونُ علينا من هذا[1].

وللمؤمن الحريص علىٰ تعظيم ربِّه أن يتأمَّل كيف يكذبون ويجادلون، ويصدُّ بعضهم بعضًا عن الهُدىٰ ودين الحقِّ، فلو عظَّموا الله، ووحَّدوه، واتَّبعوا رسولَه؛ لعظَّموا الوحيَ الذي جاء به، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

ذُكِرَ أنَّ الأخنس بن شَريق لقي أبا جهل، فقال الأخنسُ: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمَّد، أصادقٌ هو أم كاذبٌ؟ فليس هاهنا مَن يسمع كلامك غيري. فقال أبو جهل: والله، إنَّ محمَّدًا لصادقٌ، وما كذبَ قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيٍّ باللِّواء والسِّقاية والحِجابة والنُّبوَّة، فماذا يكون لسائر قريش؟[2].

وللمؤمن الدَّاعية أن يُسلِّي نفَسه، ويتسلَّىٰ بأخبار القرآن وسير المرسلين إذا وُجِهَ بعناد الذِّين يصدُّون عن سبيل الله، وذلك؛ لأنَّ هذه القاعدة: [إبليس وجنده بالمرصاد يصدُّون المؤمنين عن تعظيم ربِّهم] مضطردةٌ غير منخرقة، وجند إبليس ما زالوا ولن يزالوا بالمرصاد يَحُولون بين النَّاس والإيمان بربِّهم، وتعظيمه.

المطلب الثاني: أجمعت مواقف المعاندين على عدم تعظيم الله سبحانه

مرَّ بنا في المطلب السابق ذكر من يصدُّون عن تعظيم الله، وخلصنا إلىٰ أن عملهم متواصل علىٰ مرِّ الزمان، قد تتغير الوسائل لكن الأهداف واحدة، أولئك هم المعاندون الذين اجتمعت كلمتهم علىٰ عدم تعظيم الله، وقد مرَّ بنا بعض كلامهم في هذا السِّياق، وذكر أهل العلم أنَّ أبا جهل خاطب النَّبيَّ ﷺ مباشرةً بقوله: إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ، وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][3].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ١١٧).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٣٣٣)، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢٣).

(٣) سنن الترمذي (٣٠٦٤).

في عبارات مختصرة سأحاول في هذا المطلب استعراض بعض المواقف التي أجمع بسببها المعاندون علىٰ عدم تعظيم الله -عزَّ وجلَّ-:

أوَّلًا: الشِّرك والكفر تنقيص ومسبَّة لله تعالى؛ لأنَّهما يضعفان رغبة الإنسان في تعظيم ربِّه

يضعف الشِّرك رغبةَ الإنسان في تعظيم ربِّه، لمزاحمة تعظيم قلبه لغير الله من الآلهة والأنداد، حتىٰ جعلوا لهم نصيبًا ممَّا يجب أن يكون لله وحده، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[الأنعام]، وهم لشدَّة توقيرهم لشركائهم يُطَفِّفون في التعامل فيتساهلون فيما ينبغي لله ليصل إلىٰ الشركاء، أما ما خصُّصوه للشُّركاء فلا يسمحون أن يذهب شيءٌ منه لله، لذلك قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ذلك شأن المشركين الأوائل، حيث كانوا إذا زرعوا مزارعهم «يطففون الكيل مع الله، ويكفرون نعمة الله، فهم أكثر أدبًا، وأشدُّ دقة في استيفاء ما قسموا لشركائهم، فلا يتساهلون فيه، ولا يسمحون بأن تعبث به يد، أو يعتدي عليه معتد، أما ما كان لله فمعرَّض للخطر والتلف، والزيادة والنقصان، ينقص ولا يزداد، وما ضم منه إلىٰ قسط الشركاء فلا بأس به»[(١)].

كان ذلك شأن الأوائل، والخطب يتفاقم في الأزمان المتأخرة، حيث لم يعد شرع الله معظمًا ولا مقدرًا في كل نواحي الحياة، وأمست مواثيق المنظمات الدولية مقدَّمة علىٰ أمر الله، وحاكمية قوانينها أكثر احترامًا من حاكمية الشريعة الإسلامية!!.

ثانيًا: الدُّنيوية أو الرغبة في الحياة [الدنية]، تؤدي بالإنسان إلى الإعراض عن الدين

عادة ما نجد باعث الإعراض عن الطاعة بالكلية هو فقدان عمل القلب الذي هو شرط لصحة الإيمان[(٢)]، وعمل القلب هنا تعظيمه لله والخضوع له والرغبة فيما عنده والرهبة مما حذَّر منه، والمقصود بالإعراض هنا: الإعراضُ عن دين الإسلام، لا يتعلَّمه المرء ولا يعمل به، ولا يبالي بما يترك مِنَ الواجبات، وما يأتي من المحرمات، ولا بما يَجهل من الأحكام[(٣)].

---

(١) رسالة التوحيد (١٥١).

(٢) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة (٣٠٣).

(٣) جواب في الإيمان ونواقضه (٢٩٣٠).

وينبغي أن يُعلم أنَّ المكلفَ يَخرج مِن كفرِ الإعراض، بفعل شيء من الواجبات التي تختص بها شريعة الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، ولا يكفيه أن يفعل شيئًا من أعمال البر ولو كانت عظيمة ما لم يؤمن بالله ورسوله، فهذا هو أبو طالب عم النبي ﷺ كان أشدَّ الناس دفاعًا عن رسول الله، وأقسم علىٰ ذلك يمينًا صادقة، ولكنه لما لم يدخل الإيمان إلىٰ قلبه؛ لم ينفعه بره ذاك، قال الله تعالىٰ عنه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام]، ذكر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سبب نزول الآية، قال: نزلت في أبي طالب كان ينهىٰ المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عمَّا جاء به[١]. وقيل: «نَزَلَتْ فِي عُمُومَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانُوا عَشَرَةً، فَكَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ مَعَهُ فِي الْعَلانِيَةِ، وَأَشَدُّ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي السِّرِّ»[٢]، وأوضح محمَّد بن كعب القرظيُّ المعنىٰ العامّ للآية: «أي: ينهون الناس عن قتله، وقوله وينأون عنه أي يتباعدون منه»[٣]، والمراد: أنَّ كفَّار مكة ينهون النَّاس عن اتِّباع الحقِّ وتصديق الرسول والانقياد للقرآن، وينأون عنه أي: ويبعدونهم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يدعون أحدًا ينتفع[٤].

فإذا كان الإعراض قد شغل الكفَّار في السَّابق عن الدِّين فأعرضوا عنه، بل منعوا غيرهم من الإقبال إليه؛ فإنَّ الحياة المدنية في زماننا هذا تدعو لأسوأ من ذلك، حيثُ ترغب عن الدِّين بل تعاديه، وتضعه في آخر الأولويات، تلجأ إليه متىٰ وجدته يخدم أغراضها الدُّنيوية، وقد نشأت تيارات وفلسفات غربية همُّها الحياة الدُّنيا، هي جنَّتها ونعيمها، أمَّا التَّفكير (الماورائي) فلا حاجةَ إليه في الحياة المدنية، وبالتَّالي يجب إقصاء كلِّ مظاهر الدِّين من الحياة في مقابل إشاعة الحريات العامَّة، والمناداة بإلغاء كافَّة القوانين يرونها مقيِّدة للحريات، ومقتضىٰ هذا الكلام إلغاء شعيرة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وغياب المناصحة، ممَّا سيترتب عليه وقوع المجتمعات في براثن الفوضىٰ الأخلاقية والانحرافات الفكرية، قال المولىٰ جلَّ ثناؤه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ

(١) أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي (٢١٥).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم لابن أبي حاتم (٤/ ١٢٧٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢١).
(٤) المرجع السابق نفسه.

﴿عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية]، وهذا الاعتقاد ضعيف متهافت لن يقيم حضارة بل سيدمر الحضارات القائمة، حيث إنه لا ولن تستقيم الحياة الإنسانية بدون يقين في الآخرة، ومن أجل ذلك كلِّه كان هذا التوكيد في القرآن الكريم علىٰ حقيقة الآخرة(١).

ثالثًا: إنكار البعث والنشور من الموانع التي تحول دون تعظيم العبد ربَّه

بعد أن وقفنا عند الإعراض باعتباره مانعًا يحول بين العبد وتعظيم ربِّه؛ نأتي إلىٰ مانع آخر ذي صلة وثيقة، بل هو نتيجة حتمية للإعراض، وهو الإخلاد إلىٰ الأرض وإنكار البعث، بدعوىٰ نهاية حياة الإنسان في الدُّنيا، وأن ليس ثمة حياة أخرىٰ، وقد «كذَّب كثير من الناس قديمًا وحديثًا بالبعث والنشور، وبعض الذين قالوا بإثباته صَوَّروه علىٰ غير الصورة التي أخبرت بها الرسل»(٢)، إذن لم يقف إنكار اليوم الآخر عند الأقدمين الذين عاصروا الرسل، بل «يوجد الآن بين أظهرنا من لا يؤمن باليوم الآخر كلية، ويدعو إلىٰ التخلص من هذه الخرافات التي لا يقبلها العقل، إذ لا يعرف العقل المعاصر معنىٰ لما يسمىٰ بالضرورة الدينية، أو الغيب، فالإنسان مادة تفنىٰ بفناء الجسم ولا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، وليس وراء الحياة الدنيا شيء ينبغي أن نعمل لأجله أو نخشاه، وما هي إلا هرطقة يأباها العقل والعلم معًا، وصرَّح بعضهم بأن هذه القضية كانت ولا زالت أحد عوامل التخلف للمسلمين»(٣).

ويذهب الغلاة من الدِّنيويين إلىٰ مدًى أبعد في التَّطرف الإلحادي حيثُ «ينادي بعضهم بتأنيس الإله أو تأليه الإنسان، إنّها ثورة علىٰ العقائد الموروثة التي تكبِّل حركة العقل وتعوق مسيرة التَّقدم! فما الفرق إذن بين الموقفين، ما الفرق بين المعاندين لِلوَحيِّ قديمًا والمعاندين لِلْوَحيِّ في عصرنا الحاضر؟»(٤).

وذكر القرآن قول المكذبين، وذمَّهم وكفَّرهم وتهدَّدهم وتوعَّدهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام]، فقد قصر هؤلاء أنظارهم علىٰ ظاهر

(١) أركان الإيمان (١٨٣).
(٢) القيامة الكبرىٰ (٦٩).
(٣) الوحي والإنسان قراءة معرفية (٣٩).
(٤) المرجع السابق نفسه.

الحياة ومفاتنها، «ومتع نفسه بها ولم يتأمل في سرها، فانشغل بتحصيلها وجمعها والتمتع بها عن العمل لما بعدها، بل أنكر أن يكون هناك حياة غيرها»[(١)]، وهذا حال المنكرين قديمًا وحديثًا، لا فرق إلا في غلو الملحدين في العصر الحديث الذين غَلَوا غُلُوًّا ربما أنكره أسلافهم لو أتيحت لهم فرصة الاطلاع علىٰ مقالات المعاصرين.

وما أعظم ما نجده في القرآن من مواعظ تليِّن القلوب، فيا ليت المنكرين الذين أخلدوا للحياة الدنيا يعلمون بما فيه من عظات وعبر فيعملون بمقتضاها، قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

(١) التوحيد للفوزان (٨٢).

المبحث الرابع: عواقب المعظمين والمعاندين في سورة الأنعام

المطلب الأول: مكذّب الوحي جزاؤه الإهانة

ترشدنا الآيات الثلاث الأولىٰ في (سورة الأنعام) إلىٰ ثلاث دلائل مهمَّة، ولكن العصاة المعاندين لم يستجيبوا لها رغم وضوح ما تدلّ وترشد إليه، فقد:

- أرشدت إلىٰ دلائل وحدانية الله تعالىٰ في ربوبيته وألوهيته، ولكن هذه الآيات علىٰ ظهورها لم تمنع الكافرين من الشِّرك في الألوهية.
- وأرشدت إلىٰ دلائل البعث، وإلىٰ أنّها علىٰ قوّتها لم تمنع المشركين من الشَّكِّ فيه.
- وبيَّنت الثَّالثة أنَّ الله -تعالىٰ- المُتَّصف بالصفات التي يعرفونها ولا ينكرونها هو الله في عالمَي السَّماوات والأرض، المحيط علمُه بكلِّ شيء؛ فلا ينبغي أن يتخذ معه إله فيها، ولكن المشركين جهلوا ذلك، فجوَّزوا أن يكون غير الربِّ إلهًا، وعبدوا معه آلهة أخرىٰ، فبيَّن لهم الوحي الحقَّ في ذلك، وأنَّ الله الذي يعترفون بأنَّه هو ربُّ السَّماوات والأرض وما فيهنّ هو الإله المعبود بالحقِّ فيهنّ.

ثمَّ أرشدت هذه الآيات الثَّلاث اللَّاحقة إلىٰ سبب عدم اهتدائهم بالوحي، وأنذرتهم عاقبة التَّكذيب بالحقِّ، ويتلو ذلك في الآيات التي بعدهنَّ كشف شبهاتهم علىٰ الوحي وبعثة النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيكون الكلام في أصول الدِّين كلِّها وكلِّ السُّورة تفصيل له[1].

لذلك؛ قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام]، فدائمًا وعلىٰ مرِّ الأزمان نجد عاقبة العناد والاستكبار وخيمة.

ويخبرنا الله -تعالىٰ- عن أحوال المكذِّبين من الأمم السَّابقة، الذين لم يشكروا النِّعم التي تحيط بهم من فوقهم وأسفل منهم، ولكنهم كذَّبوا ولم يشكروا، فيخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- بشأنهم حذرًا من الوقوع فيما وقعوا فيه، فيقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وللحقيقة «لم تكن تلك

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٢٥١).

المواهب والنِّعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقُّوه بذنوبهم ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، لا هذا ولا ذاك، فإمَّا الإيمان وإمَّا الهلاك»[(١)]، فالمولىٰ سبحانه «لا يتعاظمه أن يُهْلِك قرنًا ويخرب بلاده منهم؟ فإنَّه قادر علىٰ أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده»[(٢)]، متىٰ استقامت طريقتهم، وتوجَّهوا إلىٰ ربّهم، وعبدوه وعظَّموه.

ولكنَّ هؤلاء المعاندين الذين لم يعظِّموا ربَّهم، ولم يعبدوه حقَّ عبادته سيأتيهم يومٌ يندمون فيه، وشرُّ النَّدامة ندامة يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، يتمنون الرُّجوع إلىٰ الدُّنيا!!، وقيل في معنىٰ الآية: «إن الكفَّار كانوا إذا وعظهم النَّبيُّ ﷺ؛ خافوا، وأخفَوا ذلك الخوف لئلا يشعر به أتباعهم فظهر لهم. وصدقك وتحذيرك وإخبارك بعقاب من كفر»[(٣)]، وقيل: بدا للأتباع ما كان يخفيه الرُّؤساء[(٤)]. وعندئذ يندمون ولات ساعة مندم، إذ يتبرأ منهم كبراؤهم، وتتقطع بهم الأسباب.

وإذا كان حال المعاندين هو النَّدامة يوم القيامة؛ فإنَّ المولىٰ -سبحانه- يوضِّح لنا حالهم وهم غارقون في الحسرة بعد الخسران، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام]، يذكر الفخر الرَّازيُّ في معنىٰ الآية تقريرًا عن كمال السَّعادة وأسباب الشَّقاوة والنَّدامة يلِّخص فيه ما فصَّلناه في المبحث السَّابق[(٥)] عن الأسباب المانعة من تعظيم الله، ثم يذكر عاقبة من فاتهم حظُّ تعظيم الله في الدُّنيا، فيقول: «وتقرير الكلام فيه: أنَّ كمال السَّعادة في الإقبال علىٰ الله تعالىٰ والاشتغال بعبوديته والاجتهاد في حبِّه وخدمته، وأيضًا في الانقطاع عن الدُّنيا وترك محبَّتها، وفي قطع العلاقة بين القلب وبينها، فمن كان منكرًا للبعث والقيامة، فإنَّه لا يسعىٰ في إعداد الزَّاد لموقف القيامة، ولا يسعىٰ في قطع العلاقة بين القلب وبين الدُّنيا، فإذا مات بقي كالغريب في عالم الرَّوحانيات، وكالمنقطع عن أحبابه وأقاربه الذين

(١) تفسير المنار (٧/ ٢٥٦).
(٢) تفسير الزمخشري (٢/ ٦).
(٣) تفسير ابن عطية (٢/ ٢٨٢).
(٤) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢١).
(٥) راجع: المبحث الثالث.

كانوا في عالم الجسمانيات، فيحصل له الحسرات العظيمة بسبب فقدان الزَّاد وعدم الاهتداء إلىٰ المخالطة بأهل ذلك العالم، ويحصل له الآلام العظيمة بسبب الانقطاع عن لذات هذا العالم، والامتناع عن الاستسعاد بخيرات هذا العالم»[١].

ملخص الأمر موعظة من الله لعباده حتىٰ لا يقعوا في الحسرة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام]، هذه حقيقة الدُّنيا وحقيقة الآخرة، أمَّا حقيقة الدُّنيا؛ فإنّها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنُّفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلِّقة، والاشتغال بها كلعب الصِّبيان[٢]، والمؤمن إذا ذُكِّر تذكَّر.

المطلب الثاني: عاقبة الصبر الشكر والعاقبة المحمودة جزاء من اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب معاصيه

قال الله -تعالىٰ- مُوَاسيًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام]، والآية فيها إشارة لعاقبة من صبر علىٰ دينه ملتزمًا به، معظِّمًا لحرماته، داعيًا إليه، حيث «لا ناقض لما حكم به، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام»[٣]، وقد كان يشقُّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ ألا يدخل قومُه في الإسلام، ويعظم عليه إعراضُهم عمّا جاءهم به، ولذلك سلَّاه ربُّه بذكر ما عاناه الأنبياء السَّابقون، وأمَره بالصَّبر مثلهم لأنَّ عاقبة الصبر جميلة، فبعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذىٰ البليغ؛ جاءهم النَّصر في الدُّنيا كما لهم النَّصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنَّصر في الدُّنيا والآخرة لعباده المؤمنين[٤]، والله -سبحانه- الحكيم الخبير لم يقدر لك ما لاقاك من معاناة «إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية؛ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك»[٥].

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٥١٣).
(٢) تفسير السعدي (٢٥٤).
(٣) تفسير البغوي (٢/ ١٢١).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٥).
(٥) تفسير السعدي (٢٥٤).

فما «وعد الله -عزَّ وجلَّ- به فلا يقدر أحد أن يدفعه، لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده»[١]، وقد جاء الوعد من الله لعباده المؤمنين في آيات كثيرة منها قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، وقد وضَّح العلماء معنىٰ النَّصر، قال ابن عبَّاس: بالغلبة والقهر. وقال الضَّحاك: بالحُجّة، وفي الآخرة بالعذر. وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدُّنيا والآخرة، وكلّ ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين فهم منصورون بالحُجَّة علىٰ من خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر علىٰ من ناوأهم وإهلاك أعدائهم ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نَصَرَ يحيىٰ بن زكريا لما قُتِلَ= قتل به سبعون ألفًا، فهم منصورون بأحد هذه الوجوه. ويوم القيامة يقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرُّسل بالتَّبليغ، وعلىٰ الكفَّار بالتَّكذيب[٢].

والآية «نصٌّ في تعليل النَّصر بالإيمان، ولكننا نرىٰ كثيرًا من الذين يدَّعون الإيمان في هذه القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوىٰ الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننه في أسباب النصر غير متبعين، وإن الله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، وإنّما ينصر المؤمن الصَّادق وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرَّىٰ الحقَّ والعدل في حربه، لا الظَّالم الباغي علىٰ ذي الحقِّ والعدل من خلقه. والإيمان سبب حقيقي من أسباب النَّصر المعنوية، يكون مرجِّحًا بين من تساوت أسبابهم الأخرىٰ، فليس النَّصر به من خوارق العادات»[٣].

وكما وعد الله عباده المؤمنين بالنَّصر والتمكين، زهَّدهم وحذَّرهم من الغرور والتَّعالي في الدُّنيا، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص]، قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذِه الْآيَة فِي أهل الْعدْل والتواضع فِي الْوُلَاة وَأهل الْقُدْرَة من سَائِر النَّاس»[٤]. فالفوز والفلاح لمن لم يستكبر عن الإيمان، أو يستطل علىٰ الناس أو يهينهم أو يحتقرهم، والعاقبة للمتقين الذين لم يطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطانهم، ولم يعيثوا فسادًا بالدعاء إلىٰ عبادة غير الله، أو أخذ أموال الناس بغير حق، أو تسويغ العمل

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٤١٧).
(٢) تفسير البغوي (٤/ ١١٥).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٣١٧).
(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٤٤٤).

بالمعاصي، فالعاقبة المحمودة لمن اتقىٰ عقاب الله بأداء أوامره واجتناب معاصيه[1]، ولم ينظر إلىٰ الدنيا نظرة تعظيم تنسيه الغاية التي وجد لأجلها في الدنيا الفانية، قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

وبعد كلّ هذا الوعد والوعظ، يجيء التَّذكير بأنَّ الحسنة تنادي أختها، والله يضاعف الحسنات لمن اتقىٰ، وهو -سبحانه- الملك العدل الذي لا يُظلم عنده أحد ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام].

.

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٥٤٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي وفَّق وهدىٰ، وأعان وسدَّد الخطىٰ،

فقد يسر الله -عزَّ وجلَّ- لي إتمام هذا البحث، وما كنت لأفعل لولا توفيق المولىٰ سبحانه، وقد تعمدت فيه الاختصار حتىٰ لا أتجاوز الحدَّ المرسوم من الصفحات، وقد خرجت بعدَّة نتائج وتوصيات أرجو أن تكون نافعةً للباحثين والمهتمين ومن يعنيهم الأمر.

نتائج البحث:

١- تعظيم المولىٰ -عزَّ وجلَّ- عبادة وثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، ينبغي علىٰ المسلم العناية بها وصيانتها مما يكدرها.

٢- المصادر التي يستقي منها المؤمن هدايات التعظيم هي كلام الله المنزل، وتوجيهات النبيين، وهناك مصادر أخرىٰ مثل صحبة الأخيار وملازمة المتقين.

٣- في التوحيد تنزيه لله وتعظيم له، والشرك بالله تنقيص ومسبة لله سبحانه وتعالىٰ.

٤- من أكبر الأسباب التي تمنع الناس من تعظيم ربهم في زماننا هذا الإعراض عن الدين، وعدم التزام حدود الشريعة، بل توقير واحترام التشريعات الدولية التي تخالف ثوابت الإسلام.

التوصيات:

أتقدم في خاتمة هذا البحث بتوصية واحدة مفادها: أنَّ هذا الموضوع كبير يصعب الإحاطة به في عدد محدود من الصفحات، لذلك أقترح علىٰ أخواني الباحثين في مجالي (الماجستير والدكتوراه) الكتابة عن تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- في القرآن الكريم، أو في بعض سور القرآن أو عناية السُّنَّة النَّبوية بهذا الجانب العقدي المهم.

ويمتد الاقتراح بأن يعتني طلاب الدِّراسات العليا بوسائل تنمية تعظيم الله في نفوس المسلمين في ظلِّ التَّحديات الفكرية والتشريعية المعاصرة.

وبالله التوفيق،،

المصادر والمراجع

١- أركان الإيمان، علي بن نايف الشحود، الطبعة الرابعة: ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٢- أسباب النزول أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشيخ محمد المين الشنقيطي، الناشر: دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٤- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي الشهير بان خطيب الري، تحقيق: علي سامي النشار، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٥- الإكليل في استنباط التنزيل، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٦- إيثار الحق علىٰ الخلق في رد الخلافات إلىٰ المذهب الحق من أصول التوحيد، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ الشهير بابن الوزير اليماني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية: ١٩٨٧م

٧- الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم: فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن صالح، الناشر: مدار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولىٰ: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٨- تعظيم الله جل جلاله «تأملات وقصائد»، لأحمد بن عثمان المزيد، الناشر: مدار الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٩- تفسير ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي، الحنظلي، الرازي الشهير بابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة: ١٤١٩هـ.

١٠- معالم التنزيل في تفسير القرآن الشهير بتفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٠هـ

١١- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير تفسير الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي الشهير بان خطيب الري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ

١٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل تفسير الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ

١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م.

١٤- جامع البيان في تأويل القرآن، تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م

١٥- تفسير القرآن، تفسير العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٦هـ،١٩٩٦م

١٦- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٩هـ

١٧- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٨- تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٩- النكت والعيون (تفسير الماوردي) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشهير بالماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٠- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.
٢١- تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان، تحقيق عبد الله محمود شحاتة، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٣هـ.
٢٢- التنوير شرح الجامع الصغير، أبو إبراهيم عز الدين محمد بن إسماعيل بن الحسني الشهير بالأمير، تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
٢٣- التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
٢٤- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م
٢٥- جواب في الإيمان ونواقضه، عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنىٰ به: عبد الرحمن بن صالح السديس، الناشر: دار التدمرية، الطبعة الأولىٰ: ١٤٧٣هـ، ٢٠١٦م.
٢٦- حجة الله البالغة، أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «الشاه ولي الله الدهلوي»، تحقيق: السيد سابق، الناشر: دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
٢٧- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، الناشر: دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٢٨- رسالة التوحيد المسمىٰ بتقوية الإيمان، إسماعيل بن عبد الغني بن وَلي الله الدهلوي، نقلها للعربية وقدم لها: أبو الحسن علي الحسني الندوي، اعتنىٰ بها: سيد عبد الماجد الغوري، الناشر: دار وحي القلم، دمشق، سورية، الطبعة الأولىٰ: ٢٠٠٣م.
٢٩- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٢هـ.

٣٠- الزهد والرقائق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت،بدون تاريخ.
٣١- سنن الترمذي، أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية: ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
٣٢- السنن الكبرىٰ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
٣٣- الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا [أصل الكتاب: رسالة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير من شعبة العقيدة بالجامعة الإسلامية]، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
٣٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٢هـ.
٣٥- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت
٣٦- غريب الحديث، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، الناشر: جامعة أم القرىٰ، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٥هـ.
٣٧- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
٣٨- القيامة الكبرىٰ، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر، الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة السادسة: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٣٩- الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي، الناشر: دار المنهاج، دار طوق النجاة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٤٠- لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
٤١- مجموع الفتاوىٰ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، عام النشر: ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
٤٢- مسند ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٩٩٧م.
٤٣- المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر: دار الهداية للطباعة والنشر والترجمة، الطبعة الأولىٰ: ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
٤٤- معاني القرآن، أبو زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، بدون تاريخ.
٤٥- معجم البدع، رائد بن صبري بن أبي علفة، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
٤٦- معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، طبعت علىٰ نفقة مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٤ه، ٢٠١٣م.
٤٧- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، عام النشر: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٤٨- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي، بدون تاريخ.
٤٩- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٥٠- منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلىٰ الإسلام، د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٥١- الموافقات، إبراهيم بن موسىٰ بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٥٢- موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، تصنيف وإعداد مجموعة من العلماء، دار التوحيد للنشر، الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

٥٣- الوابل الصيب من الكلم الطيب، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٩٩٩م.

٥٤- الوحي والإنسان قراءة معرفية، د. محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ.